التصوف والأخلاق عند السهروردي البغدادي

أ. د. أحمد محمود الجزار

أستاذ الفلسفة الإسلامية والتصوف
العميد الاسبق لكلية الآداب – جامعة المنيا
(مقرر لجنة الفلسفة الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين)

تمهيد:-

يمكننا القول دون مبالغة إن التصوف رغم كل ما يثار حوله يرتد على الأقل في بواكيره الأولي إلى أصول إسلامية لاخفاء فيها، ليس هذا فقط، وإنما يمكن القول كذلك إن تلك الأصول الإسلامية تشكل في مجموعها قدراً هائلاً من القيم الخلقية التي يتعين أن تتحلى بها الشخصية المسلمة، ومن هذه الوجهة بالذات يصبح التصوف عاملاً مهماً في تربية سلوك الفرد والجماعة، ذلك لأن أصحابه يحرصون على مجاهدة كل نوازع النفس الإنسانية من ناحية والتحلي بمكارم الأخلاق الإسلامية التي دعانا إليها الشرع الحنيف قرآناً وسنة من ناحية أخري. نقول ذلك بشرط أن تخلص صفوف الصوفية من المبتدعين والمنحرفين، الذين يسيئون إلى جوهر التصوف الأصيل، ليظل كما كان في بواكير نشأته الأولي تعبيراً عن روحانية الإسلام بغير إفراط ولا تفريط[١].

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإنه يتعين على الباحث المنصف أن ينظر إلى حياة المحققين من كبار الصوفية، فقد انطوت ولا شك على ضرب من الأخلاق العالية، ومن تلك الزاوية، كانت إطلالة أستاذنا الدكتور توفيق الطويل وهو بصدد دراسته للأخلاق في الفكر الإسلامي، فقد أنصف الصوفية من هذه الحيثية لما قال.. ويكاد لا يخطئ من يقول إن فلسفة الأخلاق قد نبتت في ظل التصوف، وتمت بجهود أهله الذين عبروا بحياتهم العملية عن نوع من المثل الأخلاقي الأعلى، وفلسفوه بتأويلهم للتجربة التي عاشوها[٢].

ومن ثم كان بحثنا هذا محاولة للإبانة عن حقيقة الأخلاق الصوفية، ومن خلال شخصية من أبرز شخصياته، وهي شخصية السهروردي البغدادي(٥٢٩-٦٣٢هـ) والذي يعد واحداً من أبرز الممثلين للتصوف السني في عصره[٣] وليس أدل على مكانته من وصف ابن عربي الفيلسوف الصوفي(ت ٦٣٨) له بأنه مملوء سنة من قرنه إلى قدمه[٤].

وسوف نركز حديثنا في المحاور التالية:-

أولاً:- الصلة بين الدين والأخلاق.

ثانياً:- الصلة بين التصوف والأخلاق.

ثالثاً:- مفهوم الأخلاق وطبيعة الفعل الأخلاقي وركائزه.

رابعاً:- القدوة ودورها في الكمال الأخلاقي.

وفيما يلي تفصيل القول في تلك المحاور بحسب الترتيب الذي أوردناه آنفاً:-

أولاً:- الصلة بين الدين والأخلاق:

لاشك أن الدين في صميمه لا ينفك عن الأخلاق، لأن الدين وإن كان يتضمن اعتقاد الإنسان بالإله الواحد، فإن ذلك يلزمه أن يتبع هذا الاعتقاد بالطاعة لأوامره، والاجتناب عن نواهيه، ولابد من أن يكون هذا دأبه، ودينه مع الحق والخلق في آن واحد، ومن ثم كان جوهر الدين من الأمور الباطنه[٥].

ولما كان هذا هو شأن الدين أو ماهيته، فقد أصبح جامعاً للاعتقاد والعمل في وقت واحد، وأضحت الأخلاق تبعاً لذلك داخلة في نسيجه، أو هي لحمته وسداه، لأن الله ما فرض من الأعمال كما يقول الإمام محمد عبده(ت١٩٠٥م) إلا لما أوجب من التحلي بمكارم الأخلاق[٦]، ولأجل ذلك فقد أصبح الدين في نظره، كذلك من أقوى العوامل في أخلاق العامة والخاصة معاً[٧].

فالدين إذاً يتضمن المعرفة بالله من ناحية، والعمل بما يليق بهذه المعرفة من ناحية أخري، وكلما كان المرء على وعي بأوامر الدين ونواهيه، كان ولا شك على قدر من الأخلاق، لأن الدين كما يقول السهروردي البغدادي هو الانقياد والخضوع، ومن ثم فالدين بحسب هذا المفهوم – أن يخضع الإنسان نفسه لربه[٨]. ولكي يتحقق هذا الأمر، فلابد من الفقه في أمور الدين، لأن هذا ولاشك يجعل المرء أكثر انقياداً للعمل في مرضاة الله، ويسهل عليه التمسك بالفضائل الخلقية، ذلك لأن كل من كان أفقه في الدين، كانت نفسه أسرع وأكثر انقياداً لمعالم الدين على حد قول السهروردي[٩].

فالدين إذن لا تكمن قيمته فقط في مجرد الاعتقاد بالله، بل لابد من العمل الصالح بما يمليه هذا الاعتقاد، وليس العمل الصالح إلا التحلي بمكارم الأخلاق، ومن ثم يتلازم النظر والعمل أو المعرفة والطاعة، وتكتمل الشخصية المسلمة بإتيانها كل ما دعا إليه الدين في نصوصه المنزلة، وما حث عليه الرسول – صلي الله عليه وسلم – لما عظم هذا الأمر فقال: من يرد الله به خيراً، يفقهه في الدين[١٠]...وإذا كان ذلك كذلك، فقد صارت الأخلاق داخلة في نسيج الدين، إن لم تكن جوهره، وهو ما فطن إليه السهروردي صراحة، فجعل الدين هو مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة[١١].

ولا عجب بعد ذلك أن تكون رسالة الدين على النحو الذي يذكره السهروردي، فقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام – قوله: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، ولأجل ذلك كان حسن الخلق ضرورة لكل مسلم كضرورة العبادات المفروضة عليه تماماً ويستشهد

السهروردي بحديث رسول الله "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب الخلق ليبلغ درجة صاحب الصوم والصلاة"[١٢].

ومن ثم يمكن القول إن التحلي بمكارم الأخلاق، لا يقل أهمية للمؤمن الكامل في إيمانه عن أدائه لكل صور العبادات، بل إن الأخيرة بالذات لابد فيها من أن تحقق له هذه الثمرة – مكارم الأخلاق – وهو الأمر الذي يستقيم فعلاً مع تصور العبادات في الإسلام، فإنها إذا لم تكن على هذا النحو، تصبح حقاً صورة لا روح فيها، أو هيكلاً فارغاً من المضمون[١٣]. وهذا صحيح في كل الأديان، إذاً ليست الطقوس الدينية غاية في ذاتها، بل وسيلة، وينبغي أن تكون كذلك لتلائم تحقيق الغايات الدينية[١٤].

ثانياً:- الصلة بين التصوف والأخلاق:

وإذا كان هذا هو جوهر الدين من حيث إنه أخلاق، وإذا كان حسن الخلق هو ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن في كل أحواله مع الحق والخلق، وظاهراً وباطناً في الأمر نفسه، فقد لزم عن هذا كله أن يحرص الصوفية على التحلي بمحاسن الأخلاق جنباً إلى جنباً العلم بالله على وجهه الأتم، وما ذلك إلا لأنهم كما يقول السهروردي أوفر الناس حظاً في الاقتداء برسول الله، وأحقهم بإحياء سنته، والتخلق بأخلاقه، لأنهم وقفوا في بداياتهم لرعاية أقواله، وفي وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك أن يتحققوا في نهايتهم بأخلاقه[١٥].

وليس أعظم من أن يتشبه المرء بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كان خُلقه القرآن، على نحو ما وصفته السيدة عائشة رضي الله عنها، وما كان خلقه كذلك إلا كما يقول قتادة لأنه كان يأتمر بما أمر الله به، وينتهي عما نهى الله عنه[١٦].

ومن أجل ذلك فقد اجتهد الصوفية أن يكونوا عاملين بأخلاق رسول الله، وهو ما حصل بالفعل على أيدي صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين، وهما يمثلان العصر الذهبي للتصوف[١٧]، فقد غلب على أصحابه الكلام في الأخلاق جنباً إلى جنب الكلام في المعرفة بالله، ولعل هذا يتضح في مصنفات الأوائل كالحارث المحاسبي (ت٢٤٣هـ) في أغلب مصنفاته، كالرعاية لحقوق الله، والوصايا ورسالة المسترشدين وكالحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ) في معظم كتبه، وأخصها الرياضة وتهذيب النفس، وكالسلمي (ت٤١٢هـ) كما في كتابيه جوامع آداب الصوفية – وعيوب النفس ومداواتها، هذاً فضلاً عن الفصول التي عقدها بعضهم للكلام عن الأخلاق على نحو ما فعله القشيري (ت٤٦٥هـ) في رسالته، وهذا يتضح كذلك في تعريف أغلبهم للتصوف، وهو ما يستشهد به السهروردي في الفصل الذي عقده للكلام عن ماهية التصوف إذ يورد قدراً من هذه التعريفات التي تؤكد وجهته الأخلاقية،

ويستدل فيها بقول الجريري: التصوف الخروج من كل خلق دنئ، والدخول في كل خلق سني، وهو ما يجعل ماهية التصوف هي الخلق بأتم معانيه، إذاً لو عرف المعني في التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها، وأعتبر حقيقته كما يقول إن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر[١٨]. وهو عين ما أكده تعريف الجنيد أيضاً لمّا قال إن التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقه واتباع الرسول في الشريعة[١٩].

ودلالة قول الجنيد تعني ولا شك أن التصوف وإن كان طريقاً للمعرفة، إلا أنه قبل ذلك تكمل بالأخلاق العالية، وهو الأمر الذي لا يتأتى إلا بترك حظوظ النفس وعلائقها، ومحاولة التشبه بالأخلاق الإلهية على قدر الطاقة الإنسانية.

ولئن كان التصوف مبنياً على ثلاث خصال كما قال رويم البغدادي، وهي التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار، إلا أن مثل هذا التعريف لا ينبغي أن ينسينا أيضاً هذا الطابع الجوهري للتصوف، نعني ارتباطه بالأخلاق وعلة الأمر عند السهروردي كما أسلفنا الإشارة أن ماهية التصوف ليست هي الزهد أو الفقر، فهما وإن كانا يدخلان فيه، إلا أنه يزيد عليهما في معناه، وربما كان الصحيح أن الفقر هنا هو افتقار المرء دوماً إلى الله في كل أحواله، وليس لمجرد التجرد من ملكية الأشياء.

ومن هذه الحيثية الأولي تتوثق علاقة التصوف بالأخلاق، فالصوفي الحقيقي هو الذي لا يزال يحرص في كل أوقاته على تصفية قلبه عن شوب النفس وكدوراتها، والذي يعينه عليها هو دوام افتقارها إلى مولاه، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها، أدركها ببصيرته النافذة، وفوضها إلى ربه، فهو قائم بقلبه على نفسه[٢٠] ومن ثم لم يكن غريباً أن يصبح الصوفي قائماً بربه على قلبه، وهو الأخلاق أو بالأحرى مقرونا بالخلق الحسن، وهو ما يؤكده، كما يقول السهروردي قول الكتاني: التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في التصوف[٢١]، ولنا أن نضيف أيضاً أن التصوف بالتالي ليس مجرد رسوم أو احتفاء بالشكل دون المضمون، بل هو ارتفاع بالخلق إلى أعلي درجاته، وعلي هذا فقد حق قول النوري إن التصوف ليس رسماً ولا علماً ولكنه أخلاق[٢٢].

ويظهرنا السهروردي على نقطة مهمة، مؤداها إن الأخلاق التي يحرص عليها الصوفية، إنما يوجبها ترقي المرء في درجات الإيمان بداية من الإسلام، ومروراً بمرتبة الإيمان، ونهاية بمرتبة الإحسان، وبحسب تفاوت الخلق يكون التفاوت في الخلق، ويكون حظ كل واحد بحسب مرتبته، وعلي ذلك فالعباد – كما يقول السهروردي قد أجابت نفوسهم

إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لأنهم سلكوا بنور الإيمان، والصوفية سلكوا بنور الإحسان، فحققوا بهذا أعلي درجات الأخلاق، لأن القلب يبيض بعضه بنور الإيمان، وكله بنور الإحسان(٢٣).

ثالثاً:- مفهوم الأخلاق وطبيعة الفعل الأخلاقي وركائزه:

بداية ينبغي أن نذكر أن السهروردي يجعل مرادفاً مرافقاً للأخلاق انطلاقا من إشارة النبي صلي الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"، ولكن الأدب لا يختص بظاهر أفعال الإنسان فقط، بل بباطنه أيضاً، أو بالأحرى لا يقف عند حال أفعال جوارحه الظاهرة، بل والباطنة معاً، إذاً الأدب كما يقول السهروردي تهذيب الظاهر والباطن(٢٤). وعلي هذا فالصوفي المحقق لا يهتم بإصلاح ظاهره وبالقدر نفسه بتهذيب وإصلاح باطنه ولا بد له من الأمرين معاً، فإذا حصل ذلك كله كان تمام الأدب أو صار صوفياً أديباً على حد قول السهروردي(٢٥)، وعلي هذا فقد لزم أن يتحقق الصوفي بالأدب بهذا المفهوم التكاملي، أعني استواء الظاهر والباطن معاً، وبهذا تصبح الأخلاق حليته ومن ثم يصح قول السهروردي إن الأدب في الظاهر والباطن، والقول والفعل عماد أهل الصوفية(٢٦).

ولئن كان الأدب مرادفاً للأخلاق، فإنه يتعين على الصوفي أن يحققه كاملاً، وإنما يكون هذا بأن تتكامل فيه محاسن الأخلاق، لأن مكارم الأخلاق مجموعها إنما يكون من تحسين الخلق، ومن هذه الزاوية لا يرى السهروردي صعوبة في تعديل السلوك الأخلاقي أو تغييره، إذ الصعوبة هي في تغيير الخلقة لا الخلق، لأن الله تعالي لما خلق الإنسان خلقه على أحسن هيئة، فالخلقة صورته، وهذه لا تبديل فيها مصداقاً لقوله تعالي: "**لا تبديل لخلق الله**"، وليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالخلق، إذ هو معناه في مقابل الخلقة التي هي صورته، ومن ثم فالأصح كما يقول السهروردي إن تبديل الأخلاق ممكن ومقدور عليه، وقد دل عليه قول النبي عليه السلام "حسنوا أخلاقكم"(٢٧).

فإذا مضينا مع السهرودي لنتعرف على إمكانية تغيير الخلق، أو تعديل السلوك، كما يقول علماء النفس وحدنا الأمر عنده يرتد إلى الطبيعة الإنسانية ذاتها، فقد خلق الله الإنسان وجعله منذ البداية للأدب ومكارم الأخلاق إذا انقاد لأصل فطرته الأولى، فالطبيعة الإنسانية يكمن فيها بالقوة الصلاح والفساد معاً، لأن الله لما خلق الإنسان جعل فيه صلاحية الخير والشر، بدليل قوله تعالى: "**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**"(٢٨)، فدلت الآية الكريمة على أن تسويتها – النفس الإنسانية – للشيئين معا(٢٩). لكن أمر تسويتها مقدور عليه أيضاً في الوقت ذاته، وتلك مسئولية الإنسان نفسه لقوله تعالى: "**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا"[٣٠] فالأخلاق إذن مذمومة كانت أو محمودة مودعة في النفس الإنسانية منذ بدء خلقتها، أو بمعنى أصح لنا أن نقول إنها فطرية أو مغروسة، وما على الإنسان إلا أن يحسن استخراج الخير من باطنه، والعزوف عن الشر بطبيعة الحال، لأن الأدب كما يقول السهروردي: استخراج ما بالقوة إلى الفعل – على حد قوله[٣١].

بيد أن الله لما خلق الإنسان على هذا النحو، وأودع فيه الصلاحية للخير والشر معاً، فقد فعل تعالى هذا بعد أن مكنه أيضاً من استخراج ما في نفسه بالتربية، فهو – الإنسان – أهل للأدب ومكارم الأخلاق – كما يقول السهروردي – ووجود الأهلية فيه كوجود النار في الزناد، ووجود النخل في النوى على حد قوله[٣٢]، وتمكين الإنسان إنما يعني قدرته على الاستطاعة، ومن ثم جدارته بتحمل المسئولية على أفعاله خيرها وشرها على حد سواء.

لكن المهم في مفهوم السهروردي للأخلاق لا يكمن في إمكانية تغييرها فقط إن كانت معوجة أو مذمومة عند البعض، بل الأهم منه هو فطنته إلى أن هذا التغيير في السلوك إنما يتم بالتدريب، والتعود، وطول الممارسة، وأن الناس يتفاوتون في حظهم منه بحسب ما هو كائن في غرائزهم، وفي بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة لنقصان قوى أصولها في الغريزة على حد قوله[٣٣].

ولعل هذا يكشف عن عمق نظرات السهروردي في النفس الإنسانية من جهة الفروق الفردية بين أفراد النوع الإنساني بحسب الغالب عليهم من تلك الغرائز، ومن ثم يتفاوتون ولابد من ذلك في القدر الذي يحتاجونه من التربية، وبالتالي في طول الممارسة والتعود اللازمين للتعود على إتيان الفضائل الخلقية. وفضلاً عن هذا كله فقد تنبه السهروردي مبكراً إلى فكرة الدوافع الغريزية، بل استعمل المصطلحات ذاتها على نحو ما يتناولها المعاصرون من علماء النفس، ذلك لأن النفس مجبولة كما يقول على غرائز وطبائع هي من لوازمها وضرورتها[٣٤]. ولما كان هذا من شأنها، فقد لزم أن يعلم المرء حقيقتها من هذه الحيثية ليرقى بغرائزه بعيداً عن مدارج الحيوانية، ووصولا إلى مدارج الإنسانية، من حيث إن جميع أخلاق النفس وصفاتها ترتد إلى أصلين: طيشها من ناحية، وشرها من ناحية أخري[٣٥].

ولعل هذا هو السبب في اهتمام الصوفية خاصة بالكشف عن خفايا عيوب النفس ودسائسها، وخفي شهواتها، ومعرفة رعونتها، ولهذا كانت أعز علومهم على حد قوله[٣٦]. وهو الأمر الذي يلح عليه الصوفية مهما اختلفت مشاربهم؛ إذ النفس عندهم هي السبب الموجب لظهور الأخلاق الدنيئة، والأفعال المذمومة[٣٧]. ولهذا فقد جعلوا النعمة العظمى في الخروج من النفس[٣٨].

ومن الأمور المهمة في تصور الفعل الأخلاقي عند السهروردي أنه يتحدد من خلال الوسطية التي هي خصيصة للفعل الأخلاقي في التصور الإسلامي أصلاً. أعني النظر إلى الإنسان من حيث هو بدن وروح في آن واحد، دون طغيان جانب على الآخر، لأن منتهى الكمال الخلقي عند السهروردي هو الذي يكون فيه المرء على غاية الاعتدال واقف على الصراط بين الإفراط والتفريط، وهو ما كان عليه رسول الله، فقد كان يقيم الليل ولا يقيم الليل كله، ويصوم النهار ولا يصوم الشهر كله، إلا شهر رمضان، ويتناول الشهوات[٣٩].

فالأخلاق الصوفية إذاً بالمعنى الذي يقرره السهروردي تمثل بالتالي الأخلاق الإيجابية، أو هي بالأحرى الأخلاق الإسلامية، وهي تلك التي تراعي مطالب البدن والروح معاً، ولا يتحقق هذا إلا بالوسط العدل، وهو الذي يتحدد برعاية طرفي الإفراط والتفريط[٤٠] فالفضيلة إذاً ليست هي التي ترعى مطالب الروح، وتكبت مطالب الجسد، فذلك ما لا يتفق والطبيعة الإنسانية، فضلاً على أنه لا يتفق وتعاليم الإسلام نفسه لقوله تعالي: " **وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ**"[٤١] وقوله تعالي: "**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً**"[٤٢].

وعلي هذا يمكن القول إن تعريف أرسطو للفضيلة بوصفها هي الوسط العدل بين رذيلتين كليتهما إفراط وتفريط[٤٣]، قد عرفه السهروردي انطلاقاً من معرفته وإدراكه للأصول الإسلاميه ولفطنته وهو الصوفي المحقق لطبيعة الإنسان، وهو الأمر الذي في رأينا حقيقة كل نزعة روحية، أو كل كمال أخلاقي في ضوء الأصول الإسلامية[٤٤].

فالكمال الخلقي إذاً إنما يقوم في الوسط العدل، وهو ما ينبغي أن يحرص عليه الإنسان ليرتقي من دواعي الحيوانية، ويتحقق بالإنسانية، لكن الوسط العدل إنما يتحدد بالعلم، وهو في مفهوم السهروردي علم الشرع، ولابد من ذلك أولاً، ثم العقل ثانياً، وينبني على هذا أن تغيير الأخلاق أمر ممكن، لكنه مرهون بمعرفة الإنسان لما هو حسن وقبيح على نحو ما بينه الشرع، لأن تحسين الأخلاق لا يكون إلا بتزكية النفس، وطريق التزكية هو الإذعان لسياسة الشرع على حد قول السهروردي[٤٥]. وعلى هذا فإن الوسط العدل لا يحدده العقل أو الحكيم كما قال أرسطو الفيلسوف اليوناني[٤٦]، وإنما يحدده الشرع في التصور الإسلامي للأخلاق، ومن ثم فنفوس العلماء والزهاد لما تأدبت، فما حصل لها هذا إلا بعد الأخذ بما في أصل الدين وأساسه الشرع[٤٧]، ومن ثم فإشارة السهروردي إلى العلم الذي يحدد هذه الوسائل للفعل الأخلاقي إنما تنصرف إلى الشرع بداية، فالتحسين والتقبيح راجع له أو إليه، وعلي هذا فكل علم لا يوافق الكتاب والسنة، وما هو مستفاد منهما أو معين على فهمهما فهو رذيلة وليس بفضيلة، ولهذا السبب عينه كان الفقه في الدين من أكمل المراتب وأعلاها[٤٨].

يبد أن تقديم الشرع لا يعني إهمال العقل، وعدم الإفادة منه في ترشيد سلوك الإنسان، بل لابد منه، فقد جعل الله لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، لكنه عند السهروردي العقل الذي تأيد بنور البصيرة، وهو في هذا عقل الهداية لا عقل الغواية[٤٩]. وكلما استطاع الإنسان أن يجمع بين العقل بهذا المفهوم، والصبر الذي هو جوهره أو عدته، أمكن له أن يمضي في مدارج الكمال الأخلاقي، أو بمعني أصح، كلما تزكت النفس وتدبرت بالعقل، استقامت أحوالها الظاهرة والباطنة، وتهذبت بالأخلاق وتكونت بالأدب[٥٠].

ومن المهم أن نضيف إلى ركائز الفعل الأخلاقي عند السهروردي ركيزة لا تقل أهمية عما سبق وهي ضرورة توفر القصد أو النية بالمعني الأدق في إتيان الفعل، فالعبرة ليست بنتائج الفعل، وإنما ببواعثه ومقاصده، ومن ثم فكل عمل من الأعمال لابد وأن يستند إلى النية، وإلي حسن الخاتمة على حد قول السهروردي[٥١]، وهو هنا يتوافق مع الأصول الإسلامية قرآناً وسنة لقوله تعالي: "**لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم** "[٥٢]، وإلي قوله عليه السلام: "**إنما الأعمال بالنيات**" الخ الحديث[٥٣].

فالمهم في الأفعال هو البداية، وتلك تحكمها النية، فهي أول العمل، وبحسبها يكون العمل[٥٤]. وعلي ضوء حرص الإنسان على توافر هذه الشرط يتفاضل بالنسبة لغيره من الناس، فمن كانت بدايته أحكم، كانت نهايته أتم[٥٥]. وكلما استطاع الإنسان إحكام فعله من حيث النية أو القصد، ارتفعت قيمة فعله عند الله، وإنما يكون هذا بالإخلاص، وإخراج دواعي النظر إلى حظوظ النفس، بحيث يصبح الفعل خالصاً لله تعالي[٥٦]، وهكذا تتفاضل الأعمال من حيث النية أو إخلاص القصد في الفعل لله وحده، وتصغر بالتالي قيمة الفضائل، وتعظم أيضاً تبعاً للنية، فُربّ عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية، فلا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له[٥٧]. ومن هذه الزاوية يحق القول إن الصوفية قد سبقوا في قولهم بهذه الفكرة – النية الخالصة – الفيلسوف الألماني كانط في نظرية الإرادة الخيرة سبقاً بعيداً[٥٨].

رابعاً:- القدوة ودورها في الكمال الأخلاقي:

ومن البدهي أن يكون للقدوة دورها في ترشيد سلوك الإنسان، والاتجاه به صوب أعلي درجات الكمال الخلقي، وبالقدر الذي تكون عليه القدرة من مكارم الأخلاق، تكون ثمرتها عند من يقتدي بها، وبدهي أن تكون القدرة للمسلم الكامل في إيمانه هي النبي صلي الله عليه وسلم، فقد جمع كل محاسن الأخلاق لقوله تعالي في حقه: "**وإنك لعلى خلق عظيم**"[٥٩]، ولما كان هذا هو حظه تعالي من كل كماليات الأخلاق، فقد وجب التأسي به لقوله تعالي: " **لقد**

كان لكم في رسول الله أسوة حسنة "[٦٠]، ومن هذه الحيثية حرص الصوفية على متابعته عليه الصلاة والسلام في أعماله وعباداته وأخلاقه لقوله تعالي: "**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**[٦١]، فلما اتبعوه في أعماله من الجد والاجتهاد في العبادة والأعمال، رزقوا ببركة هذه المتابعة في الأقوال، والأفعال، والتخلق بأخلاقه من الحياء والحلم والصفح والشفقة والرأفة والتواضع، ورزقوا قسطاً من أحواله من الخشية والسكينة والرضا والصبر والتوكل[٦٢]، وكل هذه الخصال هي التي صارت فيما بعد مداراً للطريق الصوفي بمقاماته وأحواله، وكلها لا تنفك عن الطابع الخلقي بداية ونهاية، ولما عمل الصوفية بما علموا، حصل لهم هذا الكمال الخلقي، لأنهم رضوا أنفسهم بالمكابدات والمجاهدات حتي أجابت إلى تحسين الأخلاق[٦٣].

صفوة القول إذن إن الأخلاق عند السهروردي تنطلق من أصول إسلامية، وتجمع إلى ذلك بين حكمة العقل وإدراك نوازع النفس الإنسانية، وبهذا الفهم تستقيم الأخلاق، أو ينبغي أن تكون عند كل الصوفية، بل إن هذه الوجهة الخلقية هي التي تمثل جوهر التصوف، ولهذا فقد كان ابن القيم (ت ٧٥١ هـ) ألمعيًا لما تنبه إلى أن التصوف من هذه الحيثية تحقيق لهذه الغاية، فالدين كله خلق، وكذلك التصوف[٦٤].

وبهذا المفهوم يمكن أن يكون التصوف علماً للأخلاق الإسلامية، أو على الأقل يمكنه أن يكون وسيلة لتقويم الخلق وتربية النفوس، وهو ما فطن إليه الإمام محمد عبده لمّا جعله وسيلة لتهذيب أخلاق العامة، وتقويم عاداتها، وترويض النفوس بأعمال الدين، وجذبها إليه وجعله وجداناً لها[٦٥]، وهو دور يمكن أن يؤديه التصوف من حيث إن الأعمال الدينية إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية، ولأن الروح هي السلطان القاهر على البدن[٦٦].

ويبقي أن نتساءل في نهاية بحثنا هل يقدر التصوف والصوفية في وقتنا الحاضر على القيام بهذه المهمة؟ نعتقد أن الجواب عن هذا التساؤل رهن بقدرة شيوخه على استلهام القدوة من ماضي شيوخهم المحققين الأقدمين، والتصدي بغير هوادة للكسالى والقاعدين من بعض أتباعهم الحاليين. فإن فعلوا ذلك، وتفرغوا لتربية النفوس وتهذيبها، فتلك لعمري أعظم رسالة يمكن أن يؤديها التصوف، وهي العلو بالإنسان إلى أعلي درجات الكمال في خلقه تماماً كما خلقه الحق تعالي في خلقته في أحسن تقويم....

حواشي البحث

(١) انظر مقدمة بحثنا عن الإمام المجدد أبن باديس والتصوف الطبعة الأولى، دار الوران، القاهرة ١٩٨٨، ص٩ وأيضاً من ص ١٣١ – ١٣٧.

(٢) الطويل(الدكتور توفيق)، فلسفة الأخلاق ونشأتها وتطورها، دار النهضة العربية، القاهرة١٩٧٦، ص١٤٣، وأيضاً أنظر الدكتور/ توفيق الطويل فلسفة الأخلاق الصوفية عند ابن عربي، ضمن بحوث الكتاب التذكاري عن ابن عربي – الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٩ ص١٥٥.

(٣) انظر بصدد ترجمته: نفح الطيب للمقري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٦٨، ص ١٨٢–١٨٣، وأيضاً طبقات الأولياء لابن الملقن، تحقيق نور الدين شربية، القاهرة، الطبعة الأولي ٧٣ص ١٧٥.

(٤) المقري: نفح الطيب، ص ١٨٢.

(٥) ابن تيمية: التحفة العراقية في الأعمال القلبية، القاهرة، المطبعة السلفية ٣٩٩هـ، ص٤٢.

(٦) عبده (الأستاذ الأمام محمد): رسالة التوحيد، مطبعة النصر، القاهرة ١٩٦٩، ص١٤٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٢.

(٨) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٢، ص١٥.

(٩) السهروردي البغدادي: المصدر نفسه ص١٦

(١٠) البغدادي(الخطيب): الفقه والفقيه بتعليق إسماعيل الأنصاري مكتبة أنس بن مالك، القاهرة، ج١، ص٤.

(١١) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف ص٢٣٢.

(١٢) السهروردي البغدادي: المصدر نفسه ص٢٣٧.

(١٣) التفتازاني(الدكتور أبو الوفا): مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٧٦ ص ١٥ وما بعدها.

(١٤) بوترو(إميل): العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣ ص٢٩٦ وأيضاً ص ٢٤٥.

(١٥) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف ص٢٣٠.

(١٦) المصدر نفسه ص١٣٢.

(١٧) عفيفي (الدكتور أبو العلا): التصوف – الثورة الروحية في الإسلام، دار المعارف ١٩٦٣، ص ٩٢.

(١٨) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف ص١٥.

(١٩) المصدر السابق، ص٥٥–٥٧، وانظر التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣٤، وأيضاً الرسالة القشيرية تحقيق الدكتور عبد الحليم ومحمود، والدكتور محمود بن الشريف، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٧٦ج٢ ص ٤٩٥.

(٢٠) المصدر نفسه ص٥٨.

(٢١) المصدر نفسه ص٢٣٥.

(٢٢) السلمي: طبقات الصوفية تحقيق نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٦٩، ص ١٦٧ وأيضاً انظر كشف المحجوب للهجويري، تحقيق الدكتورة/ أسماء قنديل، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٧٥، ج١، ص٣٤٢ – ٣٤٣.

(٢٣) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف ص٢٣٥.

(٢٤) المصدر نفسه ص٢٧٦.

(٢٥) المصدر نفسه ص٢٧٦

(٢٦) المصدر نفسه ص٢٧٦ وما بعدها.

(٢٧) المصدر نفسه ص٢٧٦

(٢٨) سورة الشمس: الآية ٨٧.

(٢٩) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف ص٢٧٦.

(٣٠) سورة الشمس، الآية ٩، ١٠.

(٣١) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف ص٢٧٦ وما بعدها.

(٣٢) المصدر نفسه ص٢٧٦.

(٣٣) المصدر نفسه ص٢٧٦ – ٢٧٧.

(٣٤) المصدر نفسه ص٢٣٠.

(٣٥) المصدر نفسه ص٤٥٣.

(٣٦) المصدر نفسه ص١٢١– ٣٤– ٣٥٩.

(٣٧) الهجويري، كشف المحجوب: ج٢، ص ٢٣٢.

(٣٨) السلمي: جوامع آداب الصوفية، تحقيق إيتان كولبرج، الجامعة العبرية، القدس، ١٩٧٦، ص ١٣٨.
(٣٩) السهروردي: عوارف المعارف ص٥٤٠.
(٤٠) المصدر نفسه ص٤٥٢.
(٤١) سورة الأعراف: الآية ٣١.
(٤٢) سورة الإسراء: الآية ٢٩.
(٤٣) انظر يوسف كرم تاريخ الفلسفة اليونانية القاهرة ص٢٤٨، وأيضاً الدكتور محمد على أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي أرسطو والمدارس المتأخرة، دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٦، ص ٢٢١
(٤٤) انظر في هذا الصدد نقد الإمام ابن باديس لبعض الصوفية ممن لايقررون مثل ما قرره السهروردي، وذلك في كتابنا: الإمام المجدد ابن باديس والتصوف، ص٨١-٨٨.
(٤٥) السهروردي عوارف المعارف ص٤٥٢، وأيضاً ص٢٣٠.
(٤٦) انظر للدكتورة أميرة مطر، الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٧٦، ص ١١٠.
(٤٧) السهروردي: عوارف المعارف ص ٣٨.
(٤٨) السهروردي: المصدر نفسه ص ٣٢، ص ١٥.
(٤٩) السهروردي: عوارف المعارف ص٤٥٦.
(٥٠) السهروردي: المصدر نفسه ص ٢٧٦.
(٥١) السهروردي: البغدادي: المصدر نفسه ص٢٦.
(٥٢) سورة البقرة: الآية ٢٢٥.
(٥٣) انظر تحقيق الحديث في صحيح مسلم، المجلد الثاني طبعة الحلبي القاهرة من ص١٥٧-١٥٨.
(٥٤) السهروردي البغدادي: عوارف المعارف، ص٥٣١.
(٥٥) المصدر نفسه ص٥٣٢.
(٥٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٥٧) صبحي(الدكتور أحمد محمود): الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٦٩.
(٥٨) صبحي (الدكتور أحمد محمود): المرجع نفسه، ص ٢٧٢.
(٥٩) سورة القلم: الآية ٤.

(٦٠) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٦١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٦٢) السهروردي: عوارف المعارف ص ٤٧.

(٦٣) السهروردي البغدادي: المصدر نفسه ص ٢٣٥.

(٦٤) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، دار التراث العربي، الطبعة الأولي، ١٩٨٢، جـ ٢، ص٢٢٨.

(٦٥) عبده الإمام محمد: الإسلام دين العلم والمدنية، ص٥٠، ص١٤٢، ١٤٣.

(٦٦) راجع الدكتور عثمان أمين: رائد الفكر المصري – الإمام محمد عبده، مكتبة الأنجلو المصرية، ص٢٠١، وأيضاً انظر بحثنا عن الإمام محمد عبده والتصوف ص٨، ٩.